
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

المياه في سجلماسة
من خلال المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية



أ.د. الحسن تاوشيخت
أستاذ التعليم العالي – شعبة الآثار الإسلامية
المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث
الرباط – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تعتبر سجلماسة من أولى المدن الإسلامية التي شيدت في المغرب الأقصى، حيث تأسست حوالي سنة (١٤٠هـ/٧٥٧م) من طرف بني مدرار المكناسيين. واعتبارًا لموقع منطقة سجلماسة في مقدمة الصحراء الكبرى، فإن الماء أُعتبر من العناصر الحيوية والضرورية للحياة والحاجة إليه كانت من المشاغل الرئيسية للساكنة. وتشير الكتابات التاريخية أن سجلماسة كثيرة العمارة، على نهر كثير الماء، ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل والزرع فيه كثير الإصابة. كما أكدت الأبحاث الأركيولوجية بموقع سجلماسة الأثري واستنادًا إلى ما ذكرته المصادر المكتوبة على أن سجلماسة كانت تحيط بها المياه من كل النواحي، وتوضح صور الأقمار الاصطناعية أن الطبقات الجيولوجية الواقعة تحت موقع سجلماسة وخاصةً القريبة منها من السطح جد غنية بفرشة مائية مهمة. ويظهر من دلالة اسم سجلماسة أنها كلمة أمازيغية زناتية مكونة من شقين هما: "سج" ويعني طل، يطل، تطل ثم "لماس" ويعني الماء، وبالتالي فالكلمة كاملة تعني: تطل على الماء. وهذه الدلالة التي تنطبق تمامًا على الموضع الذي بُنيت عليه أول الأمر مدينة سجلماسة وسط واحة "تافيلالت حاليًا" ويحيط به الماء من كل جانب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٨	أكتوبر	٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر:	٠٤	يناير	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

المغرب الأقصى، المدن الإسلامية، القنوات المائية، السواقي، الماء

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055400

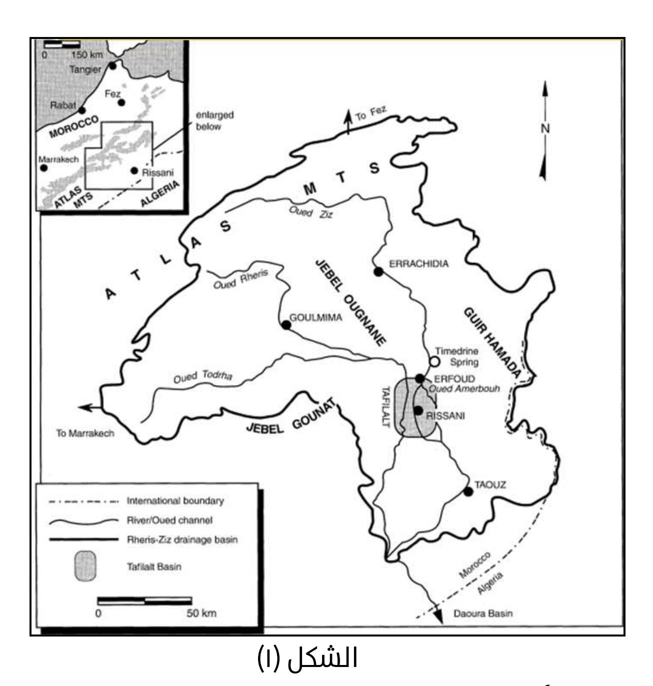
الاستشهاد المرجعي بالمقال:

الحسن تاوشيخت. **"المياه في سجلماسة من خلال المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ٥٦ – ٦٣.

مُقَدِّمَة

تعتبر سجلماسة من أولى المدن الإسلامية التي شيدت في المغرب الأقصى، حيث تأسست حوالي سنة (١٤٠هـ/٧٥٧م) من طرف بني مدرار المكناسيين. واعتبارًا لموقع منطقة سجلماسة في مقدمة الصحراء الكبرى، فإن الماء يعتبر من العناصر الحيوية والضرورية للحياة والحاجة إليه تبقى بالتالي من المشاغل الرئيسة للساكنة. وتشير الكتابات التاريخية أن سجلماسة كثيرة العمارة، على نهر كثير الماء، ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل والزرع فيه كثير الإصابة. كما تذكر أن سجلماسة بُنيت على نهر يقال له زيز يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد. ويظهر من دلالة اسم سجلماسة أنها كلمة أمازيغية زناتية مكونة من شقين هما: "سج" ويعني طل، يطل، تطل ثم "لماس" ويعني الماء، وبالتالي فالكلمة كاملة تعني: تطل على الماء. وهذه الدلالة التي تنطبق تمامًا على الموضع الذي بُنيت عليه أول الأمر مدينة سجلماسة وسط واحة "تافيلالت حاليًا" ويحيط به الماء من كل جانب وخاصة من جهة الشرق حيث يوجد وادي زيز الأول ومن الغرب حيث يجري وادي غريس.

ويحاول هذا المبحث أن يعمل مقارنة ومقاربة بين النصوص المكتوبة الواردة في المصادر التاريخية وبين ما تحتفظ به الذاكرة الشعبية وبين ما كشفته التحريات الأثرية من حقائق ميدانية. وهي حقائق قد توافق أحيانا ما أوردته المصادر التاريخية، ولكن في غالب الأحيان هي معطيات جديدة وفي غاية الأهمية. فالمبحث يقدم الإجابة عن ثلاث أسئلة أساسية هي: ما هي أهمية الماء في بناء سجلماسة وفي نموها السريع وفي الاستقرار البشري الكثيف بمجالها؟ وما هي أهم المعلومات عن الماء بسجلماسة الواردة في المصادر التاريخية؟ ثم ما هي المعطيات الجديدة التي كشف عنها البحث الأثري حول أوجه استعمال الماء بسجلماسة؟



الشكل (١)

أهمية الموقع الجغرافي لمدينة سجلماسة

١-أهمية الماء في سجلماسة

تقع سجلماسة في منطقة يسودها مناخ شبه جاف، فهي تعرف تساقطات ضئيلة طيلة السنة ولكن وبشكل فجائي تشهد فيضانات مهولة من حين لآخر تخلف خسائر بشرية ومادية فادحة، كما تتميز المنطقة بوفرة العيون. فقد ذكر البكري أن سجلماسة تقع "على نهرين وعنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها"[١]. ويُنقل عن محمد بن إبراهيم بن يحيى الأنصاري الكتبي" أن نهر سجلماسة المسمى زيز يستمد مياهه من عدة منابع"[٢]، وتقع هذه العيون بالقرب من مرتفع الجبيل. هذه العيون التي لا تزال الرواية الشفوية المحلية تتذكر منها عين تمدرين، التي كانت تمد وادي زيز بمياه جارية غير منقطعة. أمام قلة الماء وكثرة الطلب عليه، شهدت تقنيات استغلال الماء بتافيلالت تطورات كبيرة، ذلك أن الفلاح الفيلالي يحاول دائماً البحث عن سبل ووسائل تضمن له ممارسة نشاطه الزراعي بشكل مستمر. فكانت النتيجة أن تعددت طرق الاستفادة من المياه الجوفية فضلاً عن المياه السطحية. هذه المياه يتم جلبها بواسطة مصدرين أساسيين الأول يتمثل في الجريان الموسمي لواديي زيز وغريس اللذين يتغذيان من منابع جبال الأطلس الكبير ويخترقان الواحة من الغرب وفي الوسط والشرق. ويذكر اليعقوبي" أن سجلماسة على نهر يقال له زيز"[٣]. ويشير ابن حوقل أن سجلماسة" على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد"[٤]. ويشير مارمول أن "زيز نهر كبير أيضا يأتي من نفس الجبال -الأطلس الكبير- وينحدر نحو الجنوب جاريا بين الجبال الشاهقة ثم هو قرب كرسلوين مخترقا إمارات كنانة ومطغرة والرتب فإقليم سجلماسة، ويدخل في مفازات الصحراء حيث يسيل بين النخيل ويخرج منها قرب مدينة سكهيلة (؟) ليتجه ثانيًا نحو الجنوب ويكون بحيرة في وسط رمال لا يسكن حولها أحد"[٥].

أما وادي غريس فينبع من وادي ملول بالأطلس الكبير الشرقي ويمر عبر عدة مضايق وأحواض وهي أمدغوس بآيت هاني، وأسول على علو ١٦٠٠ مترًا، وأملاكو، وأمسد، وتاديغوست على ارتفاع 1200مترا، ثم منخفض تازوميت، فواحة كولميمة حوالي ١٠٠٠ مترا من العلو، ثم يأخذ اتجاه شمال- جنوب/ شرق فيمر عبر تلوين، وتوروك، ثم شمال واحات الجرف وفزنة ليصل إلى غرب واحة تافيلالت. ويقتربا الواديان كثيرًا عند مدينة أرفود "ولا يفصل بينهما إلا مسافة ٦،٥ كلم، وهما يفرغان حمولتهما في قنوات مجاورة ومتباينة، ذلك أن مجرى غريس ينخفض ما بين ٥ و ١٢ متر تحت مستوى وادي زيز، ثم يتفرقا ليقتربا من جديد على بعد ٤٥ كلم إلى الجنوب، قرب بلدة الطاوس، وليلتقيا أخيرا قرب قصر الرملية على بعد ٩٠ كلم جنوبا"[٦]، فيكونا معا واد الدورة.

وقصد الاستغلال المفيد لمياه الواديين، استطاع سكان تافيلالت، خلال العصور التاريخية المتلاحقة من إنجاز شبكة هيدروغرافية مهمة تتمثل في بناء عدة سدود صغيرة والسواقي والناعورات والتي تقوم بتحويل هذه المياه نحو قنوات ذات اتجاهات متعددة وذات أهمية مختلفة وتخترق كل أطراف الواحة. ويمكن القول كذلك إن هؤلاء السكان حققوا معجزة كبيرة تتجلى في تحويل مجرى وادي زيز من شرق الواحة نحو وسطها لكي تستفيد من مياهه بشكل أفضل، ويطلق على هذا الوادي زيز الفيلالي. ومع ذلك فإن هذا التحويل كانت له بعض السلبيات حيث أدى إلى رفع مستوى الواحة بفعل توضعات الوادي، مما جعل الاستفادة من مياه وادي غريس جد محدودة، خاصة وأنه لم تشيد سدود متينة على هذا الوادي الأخير، ولم يتم تحصين وترميم ما وجد منها.

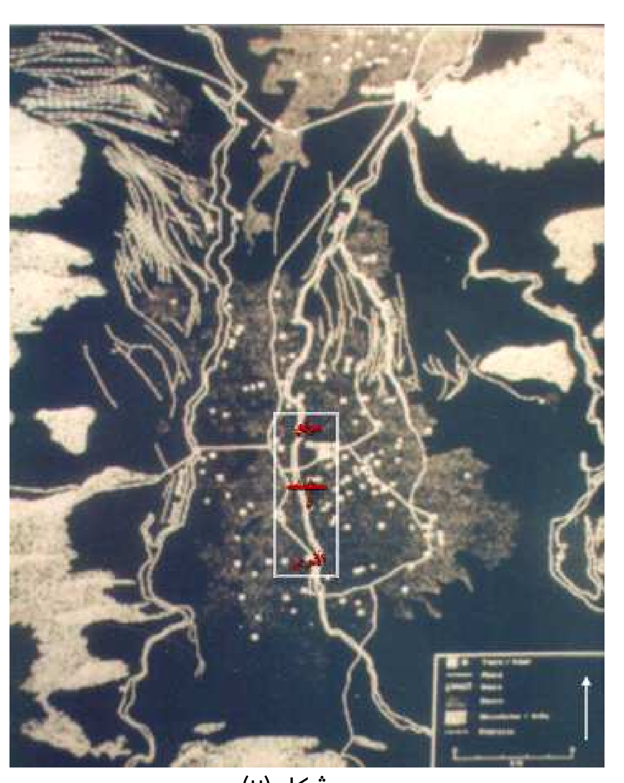
وذكرت بعض المصادر العربية أن تقنية بناء السواقي والقنوات المائية، تعود إلى فترة تأسيس مدينة سجلماسة، ففي سنة (١٤٠هـ/٧٥٧م) "قام عيسى بن يزيد الأسود بتنظيم مياه وادي زيز وقسمها بالتساوي بين قنوات تخترق الحقول والبساتين"[٧]. ويشير أحد الباحثين" ولما كانت سجلماسة محصورة بين فرعي نهر زيز فقد توفرت لها المياه، لهذا عمل عيسى بن يزيد على تنظيم الإفادة منها، فشق القنوات، وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه، واستكثر من غرس النخيل، حتى غدت سجلماسة مدينة النخيل والأعناب والفاكهة وبالتالي الاستقرار"[٨].

أما المصدر الثاني للمياه بتافيلالت، فهو جوفي يستمد مياهه من الفرشات الباطنية التي تحتل مساحة شاسعة وتمثل منبعًا لا ينضب بفعل تغذيته المستمرة بواسطة مياه الثلوج والأمطار والأنهار الجوفية. يتم استغلال هذه المياه عبر وسيلتين تهم أولاهما الخطارة، وهي عبارة عن قناة شبه جوفية تتخللها أبار ارتوازية وتقوم القناة بنقل الماء من مكان مرتفع جوفي نحو مكان سطحي ومنخفض نسبيا. واعتمادا على الوثائق التاريخية، يمكن القول إن نظام الخطارة "كان موجودًا من قبل في الحجاز، وإيران، وأرمينيا، وتوات، وتافيلالت. كان الطوارق يسمونه أفلي، والأمازيغ أفري.. وكانت الخطارة تطلق في الأندلس على عملية رفع الماء من الوادي بواسطة آلة رافعة أو عجلة أو أرجوحة.. ويتراوح طول الخطارة بمراكش بين ٥٠٠ متر و٥ كلم، وقد تصل آبارها المفتوحة للترميم والصيانة إلى ٣٠٠ بئر يبعد الواحد عن الأخر بحوالي ١٠ إلى ٢٠ م"[٩].

الوسيلة الثانية تتمثل في الآبار حيث يجلب منها الماء بواسطة الدلو أو أغرور .ويشير محمد بن الحسن الوزان إلى أنه بسجلماسة "كثيرًا ما يجف النهر في هذا الفصل [يقصد فصل الصيف] من السنة، ويقل الماء جدًا بحيث لا يجدون غير الماء المالح المستخرج من الآبار المحفورة باليد"[١٠]. ويذكر ابن خلدون أن المناطق التي استوطنها عرب المعقل من أولاد حسين من ذوي منصور، وخاصة منها سجلماسة "كانت تعرف طريقة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب حيث تحفر البئر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة"[١١]. ويتراوح عمق الآبار المستغلة بواسطة تقنية أغرور بين ١٠ و٢٠ مترا بينما يصل عرضها إلى حوالي متر ونصف. وحول جذور هذه التقنية يقول أحد الأساتذة "وإذا سلمنا بأن الخطارات من صنع قبائل زناتة.. فمن غير المستبعد أن يكون أغرور كذلك من صنعها، فيكون استعماله بمناطق سجلماسة قد بدأ احتمالاً مع قبائل مكناسة الزناتية، ثم تطور مع عرب المعقل الذين استولوا على هذه المجالات وأثروا في أحداثها ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وحتى مشارف العصور الحديثة"[١٢]. وإذا كانت المصادر التاريخية لا تقدم تفاصيل أكثر عن هذه التقنيات خلال عصر سجلماسة؛ فإن محمد بن الحسن الوزان ينفرد بذكر" أن سجلماسة كانت مدينة متحضرة جدًا دورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع السودان وكان فيها مساجد ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر تأخذه ناعورات من وادي زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة"[١٣].

وبفضل توفرها على الماء، عٌرفت سجلماسة بمنتوجاتها الفلاحية المتنوعة إلى جانب الصنائع وتجارة القوافل المسالكية. وتشير المصادر التاريخية أن مؤسس المدينة وحاكمها الأول عيسى بن يزيد الأسود (٧٥٧ – 772 م) كان أول عمل قام به بعد تخطيط المسجد الجامع ودار الإمارة هو شق القنوات المائية لتزويد المدينة بالماء وتشييد البساتين والحدائق، قبل أن يقوم بتوطين السكان على الأحياء حسب انتمائهم العرقي. وأثر النشاط الاقتصادي على تنظيم المدينة وطبيعة السكن بها، فقد كانت عبارة

عن حاضرة مجمعة تمتد على طول وادي زيز، وتنتشر بضاحيتها بنايات متفرقة يستقر بها عدد من الفلاحين. ففي الجانب الاقتصادي، تكون مصادر المياه ووسائل الإنتاج مشتركة ويتم توزيعها بدقة، ويتجلى ذلك في تجاور الحقول. والأكثر من هذا غالبًا ما يوزع الحقل الواحد بين مالك الأرض ومالك الشجر ومالك حق السقي. فالماء الذي يتم التحكم فيه بواسطة السواقي والخطارات وعبر تنظيمات وأعراف محلية، يعتبر من المشاغل الأساسية لسكان تافيلالت منذ عهد سجلماسة. ذلك "أن الظروف البيئية والمناخية القاسية التي كانت تعاني منها المنطقة جعلت سكان الواحات مؤهلين أكثر من غيرهم لابتكار تقنيات استنباط المياه الجوفية... من هنا كانت تقنية أغرور كما هو الشأن بالنسبة لتقنية الخطارة وليدة حاجة السكان للماء الجاري بصفة مستمرة لممارسة النشاط الزراعي بشكل منظم دون الاعتماد فقط على مياه الفيضانات التي يغلب عليها طابع التذبذب والموسمية".[١٤]



شكل (٢)

صورة جوية لمنطقة سجلماسة

٢-سجلماسة والماء في المصادر المكتوبة

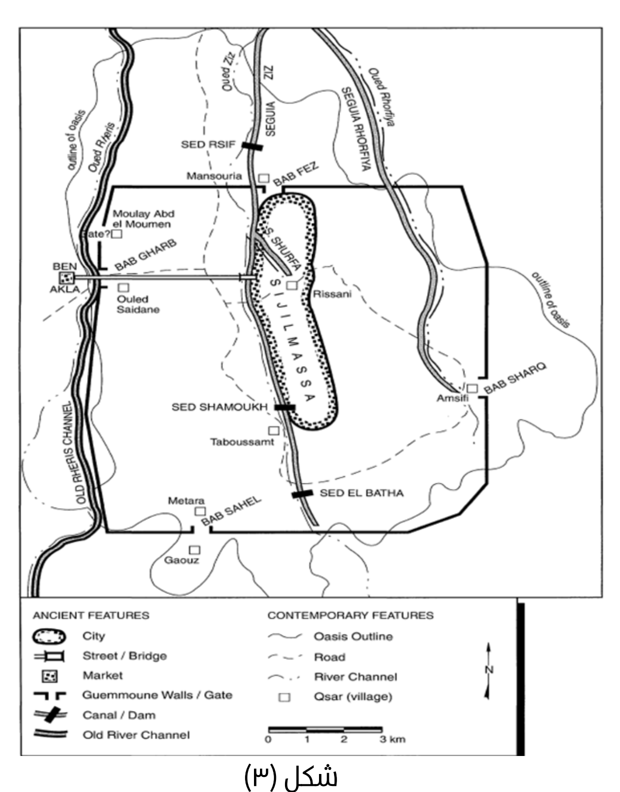
المؤرخون والرحالة العرب، وإن كان القليل منهم قد زار سجلماسة فعليًا، اعتبروها كمدينة كبيرة ومنطلق لتجارة الذهب وكثيفة السكان، وتحيط بها أرباض وحدائق خضراء، كما تواجدت بها قصور وبنايات عالية على ضفاف نهرين يحدها من الشرق ومن الغرب. فالبكري يقول: "ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة...وهي على نهرين وعنصرهما من موضع يقال أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها"[١٥]. ويصفها الإدريسي قائلاً: "وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة وكثيرة العامر وهي مقصد الوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنات رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر كثير الماء"[١٦]. من جانبه يقدم العمري صورة كبيرة عن سجلماسة بقوله: "فهي مدينة ضخمة في جنوب مدن المغرب الأخرى بجوار الصحراء الكبرى وهي من أكبر المدن بالمغرب والأكثر ازدهارا في العالم. يخترقها نهر كبير وتتوفر على قصور متينة ومباني عالية وأبواب مرتفعة، الهواء بها طاهر نظرا لقربها من الصحراء"[١٧].

وأورد المقدسي وصفا أكثر دقة، إذ يشير إلى أن سجلماسة "قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة، شديدة الحر والبرد، صحيحة الهواء، كثيرة الأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات، كثيرة الغرباء، موافقة لهم يقصدونها من كل بلد وهي ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة"[١٨]. ويذكر صاحب كتاب الاستبصار: "ولمدينة سجلماسة اثنا عشر بابا، ولها بساتين وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه...وهي على نهرين من عنصر واحد في موضع يسمى أكلف، وتمده عيون كثيرة، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر في حياض كحياض البساتين"[١٩].

ويصف ابن الخطيب المدينة بقوله "تلك كورة، وقاعدة مذكورة، ومدينة محمودة مشكورة، كانت ذات تقديم، ودار ملك قديم، وبلد تبر وأديم، ومنمى تجر ومكسب عديم، معدن التمر، بحكمة صاحب الخلق

والأمر، تتعدد أنواعه فتعيى الحساب، وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب...فمنازلها ى تنال بهوان، وفدنها ودمنها تحت صوان، ونخلها تطل من خلف جدار، وتتبوأ الأيمان والدار، وحللها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مر الزمن، وسوائمها آلفة للسمن، موجودة بنزر الثمن، وفواكهها جميمة، ونعمها عميمة..."[٢٠]. ويذكر القلقشندي أن سجلماسة "كثيرة العمارة.. على نهر كثير الماء.. ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل والزرع فيه كثير الإصابة، والمطر عندهم قليل، فإذا كانت السنة كثيرة الأمطار نبت لهم ما حصدوه في العام القادم من غير بذر"[٢١].

أما ابن بطوطة فيشبه المدينة عندما زارها سنة (٧٥٢ هـ/١٣٥٢م) بالمدن الصينية: "وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي في بلدة سجلماسة ببلادنا"[٢٢]. ويشير محمد بن الحسن الوزان الذي استقر بضعة أشهر بالمنطقة [حوالي سنة ٩١٨ هـ/١٥١٦ م]، إلى أن سجلماسة "شيدت فوق هضبة على نهر زيز وكان يحيط بها سور عال ما زالت بعض أجزائه ظاهرة وكانت لها نافورات كثيرة يأتي ماؤها من النهر. وكان بها ناعورات كبيرة تحمل هذا الماء من زيز وتطلقه في قنوات تحمله إلى المدينة"[٢٣].



شكل (٣)

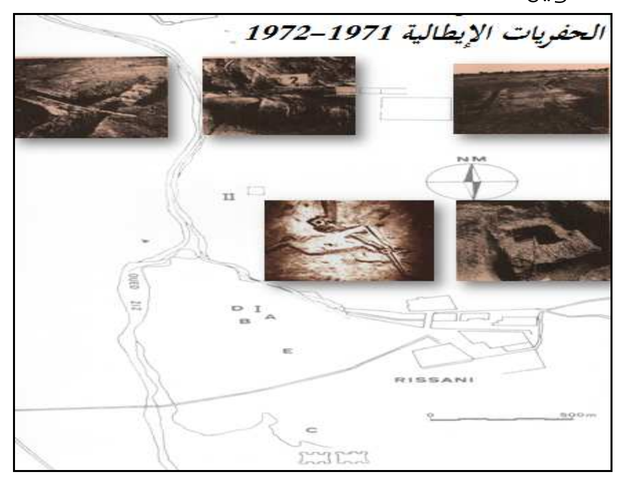
أهمية استغلال الماء في سجلماسة

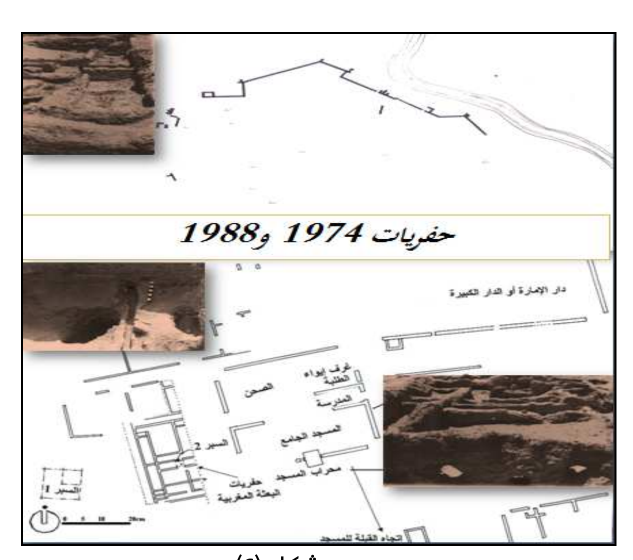
٣-أهمية الماء في سجلماسة وفق الحقائق الميدانية

قدمت الأبحاث الأركيولوجية بموقع سجلماسة عدة نتائج مهمة لم ترد بالمصادر التاريخية ومنها المنشآت الإنتاجية من حيث تمركز معاملها وتطورها ومنتجاتها والأدوات المستعملة. ولعل من أكثر اللقى الخزفية مثلاً التي تم العثور عليها خلال الحفريات الأثرية بدءًا بالبعثة الإيطالية سنة ١٩٧١ وانتهاءً بالبعثة الفرنسية حاليًا ومرورًا بالبعثة المغربية سنة ١٩٧٤ وأبحاث مركز الدراسات والبحوث العلوية سنتي ١٩٩١ و١٩٩٢ والبعثة الأمريكية ما بين ١٩٨٨ و١٩٩٨ يمكن التأكيد على أن أواني الماء المتمثلة في القلل والجرات والخوابي فضلاً عن القواديس هي السائدة بامتياز. كما كشفت التحريات الأثرية أيضًا عن بعض التجهيزات المائية كالسدود وشبكة من القنوات التي تقوم بتوزيع الماء على عدة أماكن داخل المجال الأوسط لموقع سجلماسة، فضلاً عن الأحواض والخطارات وغيرها. كما ساهمت هذه الأبحاث بالرغم من محدوديتها في الزمان والمكان من تحديد وظيفة البناية التي اكتشفت وسط وادي زيز، والتي يفترض أنها عرفت مرحلتين من الاستغلال: الأولى ربما كحمام عمومي والذي تعبر عنه الطبقات الأثرية السفلى التي يتراوح عمقها بين متر واحد ومترين ونصف أمتار؛ المرحلة الثانية: تمثلها الطبقات العُليا وهي عبارة عن حوض وقناة مائية، وهما يشكلان ولا شك أجزاء من الناعورة ترتبط بشبكة مائية كانت تزود مرافق سجلماسة أو القصبة السجلماسية بما تحتاجه من المياه سواء المستعملة في الشرب أو السقي.

غير أن الحقيقة المهمة في المجال السجلماسي التي لم تثر اهتمام النصوص المكتوبة والرواية الشفوية فتتمثل في عملية تحويل وادي زيز إلى شكل مجرى اصطناعي يخترق وسط الواحة ويمر بالقرب من موقع سجلماسة. المجال النهري الحالي بتافيلالت يتضمن ثلاث أودية تعبر الواحة من الشمال إلى الجنوب وتتقارب كثيرًا شمال الواحة لتفترق من جديد في الجنوب قبل أن تلتقي لتشكل واد الدورة. فوادي زيز الذي يمر وسط الواحة، انقسم إلى سواقي تساير في معظمها الحد الغربي لموقع سجلماسة، بينما يجري وادي غريس على طول الهامش الغربي للواحة. هذا في الوقت الذي يتخذ

واد أمربوح "زيز الأصلي" الوجهة الشرقية للواحة بعد أن انفصل عن وادي زيز في شمال تافيلالت بالقرب من قصر أولاد الزهراء، ويلتقيان من جديد في جنوب الواحة. ويوضح كل من المسح الأثري والصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية، أن مجرى زيز على خلاف وادي غريس وواد أمربوح، يظل مستقيما وهو يعبر وسط واحة تافيلالت. ويؤكد هذا أن وادي زيز الحالي لا يمكن أن يكون طبيعيا خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تم العثور عليه في موضع انفصاله عن واد أمربوح من بقايا ورش الأشغال والحجارة المستعملة في عملية التحويل.





شكل (٤)

القنوات المائية المكتشفة خلال التنقيبات الأثرية

٤-أثر الماء في خراب سجلماسة

تقدم الرواية الشفوية معلومات ضافية عن الموارد المائية وطرق استغلالها بسجلماسة. فالصورة المحتفظ بها هي أن الواحة كانت محاطة بسور وتوجد بها مدينة واحدة فقط. كما تشير الرواية المحلية أن القصور المنعزلة لم تكن موجودة، وأن الواحة لم تكن مقسمة إلى مشيخات وحقول فردية مثل اليوم وإنما كانت مجالاً فلاحيًا واحدًا واسعًا يؤمن للمدينة حاجاتها الكافية من المواد الغذائية.

الذاكرة الشعبية المحلية بأن عيون سجلماسة كانت كثيرة ومتنوعة أهمها عين تمدرين التي عمل السلطان الأكحل على تغويرها عند حصاره لسجلماسة وذلك قصد التحكم في سكانها حتى يؤدوا ما ذمتهم من الضرائب والكلف. وحسب الرواية الشفوية عرفت سجلماسة تدهورًا مستمرًا بفعل حصارها من طرف أبي الحسن المريني الملقب بالسلطان الأكحل الذي قام بتغوير عين تمدرين الواقعة على بعد ثلاثين كيلومترا شمال المدينة، والتي كانت تزودها بما تحتاجه من المياه الوافرة لسقي الحقول الزراعية. وكان لذلك تأثيرًا سلبيًا على قاعدتها الاقتصادية عامة والفلاحية على الخصوص بفعل تغوير عيونها الطبيعية والتي تشكل منبع الحياة بالمنطقة. وإلى ذلك يشير صاحب الاستقصا "أن أهل سجلماسة اختلفوا مع السلطان الأكحل فحاصرها واشتغل بتغوير ماء العين التي تسقى منها، فكان ذلك سببا في خلائها"[٣٤].

ويذكر محقق كتاب الأنوار الحسنية أن السلطان أبا الحسن علي بن عثمان المريني الشهير بالسلطان الأكحل ودفين شالة بالرباط (المحرم ٧٣١هـ / ١٣٣١م إلى ٧٥١هـ / ١٣٥١م) حارب "سجلماسة حيث غور العين التي هي عماد أهل سجلماسة في حياتهم الزراعية وهي العين المعروفة اليوم بـ "عين تيمدرين" القريبة من أرفود والتي حفر حولها مائة بئر، ثم طمسها بالصوف والقطران والرمال"[٣٥]. أمام هذه الحالة المستعصية عن الفهم، تطرح عدة إشكاليات لا نجد لها أجوبة مقنعة عند السكان المحليين ومنها: إلى أي حد، استطاع السلطان الأكحل عبر مراقبة موارد مياه زيز، من التحكم في نوع نظام السقي، وفي بسط سيطرته على المدينة؟ كيف قام هذا السلطان بتغوير عين تمدرين؟ وهل الوضعية السياسية كانت بالفعل سيئة إلى درجة أن السجلماسيين أرادوا الفرار من مدينتهم؟

من جهة أخرى، حددت الرواية الشفوية ثلاثة سدود وشبكة من السواقي المرتبطة بوادي زيز والتي شيدت قصد تحويل مياه هذا الوادي خلال فترة

سجلماسة، وبالتالي تطوير نظام الري وتوسيع المجال الفلاحي بالواحة. هذه السدود هي: سد الرصيف في الجزء الشمالي للواحة، سد البطحاء وهو أكبرها في أقصى الجنوب، سد الشموخ في الحدود الجنوبية للآثار المتبقية حاليًا من موقع سجلماسة. أما السواقي المهمة فهي: الغرفية وتتفرع عن وادي زيز في الشمال قصد سقي الحقول الواقعة في شرق الواحة. الشرفاء تتفرع عن وادي زيز في شمال القصبة السجلماسية لسقي المناطق الوسطى من الواحة [واد إيفلي سابقًا]. كما توجد سواقي صغيرة تتفرع عن هذه السواقي الكبيرة وعن وادي زيز ووادي غريس.

وأثبتت الدراسة الطبوغرافية والرواية الشفوية والدراسة الجيومورفولوجية من كون سجلماسة تعرضت لفيضانات مهولة مما أدى إلى تخريبها بالكامل. ذلك أن التوضعات النهرية بالمنطقة أدت إلى تزايد مستوى سطح الواحة بنسبة متر واحد تقريبا كل مائة سنة، ليتساوى بذلك تقريبًا مع مستوى الربوة التي أسست فوقها مدينة سجلماسة أول الأمر. فلما تعرضت لفيضان كبير أتى ذلك على كل معالمها العمرانية، خاصة وأن معظم بناياتها شيدت من الطابية. وهذا ما يؤيده أحد الباحثين، إذ يقول "اندثرت مدينة سجلماسة في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن للهجرة، ربما نتيجة تخريبها بواسطة فيضانات غير عادية لنهري زيز وغريس، فتفرق سكانها على الأماكن والقصور المحصنة بالواحة"[٢٦].

خَاتِمَةُ

أكدت الأبحاث الأركيولوجية والجيولوجية بموقع سجلماسة الأثري واستنادًا إلى ما ذكرته المصادر التاريخية وخاصة البكري، على أن مدينة سجلماسة كانت تحيط بها المياه من كل النواحي، وأن المدينة كانت في الحقيقة مبنية فوق موقع مرتفع يتكون من صخور ترجع إلى العصر الجيولوجي الأول، وأن هذا الموقع كان يشرف على واحة كانت تغمرها مياه السيول، ومياه وادي زيز، وأن التّدني الحالي لموقع سجلماسة يرجع إلى الترسبات التي تركتها السيول في الواحة خلال تعاقب مختلف العصور التاريخية، ويصل سمك طبقتها في بعض الأحيان إلى (٣٠) مترًا.

وتجدر الإشارة إلى أن الكتابات القديمة والدراسات المعاصرة وحتى الرواية الشفوية لم تذكر بتاتًا عملية تحويل مياه وادي زيز عن طريق شق قنوات وإقامة سدود تلية للاستغلال الجيد للمياه. وتوضح صور الأقمار الاصطناعية أن الطبقات الجيولوجية الواقعة تحت موقع سجلماسة وخاصة القريبة منها من السطح جد غنية بفرشات مائية مهمة. كما تمكنت هذه الصور من تحديد موضع العين الرئيسة للماء بسجلماسة على طول الحافة الشمالية لمرتفع "الجبيل"، غير أن مياهها لم تكن كافية، وهذا ما يفسر لجوء السكان إلى بناء سدود تلية على نهري زيز وغريس لتلبية حاجيات الواحة بشكل أفضل. كما كشفت تلك الصور عن تركز الأراضي الصالحة للزراعة وأهم الأنشطة الفلاحية بالجزء الشمالي من الواحة بفعل غناه إلى المياه الجوفية بالمقارنة مع الجزء الجنوبي.

الهَوامِش:

(١) البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد): **كتاب المسالك والممالك**. تحقيق أدريان فان ليوفن، أندري فيري، قرطاج، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، جزءان ١٩٩٢ (ص ٨٣٦).

(2) Fagnan (Eugène): **Extraits Inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire**. Alger 1924 (p 54).

(٣) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وحيد الكاتب): **كتاب البلدان**، القاهرة، المطبعة الحيدرية ١٩٥٧ (ص ١١٠).

(٤) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي): **صورة الأرض**، بيروت، مكتبة الحياة، الطبعة الثانية ١٩٩٢ (ص ٩٠).

(٥) مارمول (كاريخا): **إفريقيا**. تعريب محمد حجي، ومحمد زنيبر، ومحمد الأخضر، وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون الرباط، مكتبة المعارف ١٩٨٤، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ج:١ (ص ٤٦).

(6) Joly (Fernand): **Etudes sur le relief du Sud-Est marocain**. Rabat, imprimerie de l'Agdal, 1962.p291.

(٧) ابن الخطيب (لسان الذين): **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، الدار البيضاء، نشر إبراهيم الكتاني، ١٩٦٤ (ص ١٣٩).

(٨) محمود إسماعيل (عبد الرزاق): **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة ١٩٨٥ (ص ١١٨)

(٩) جلاب (حسن): "من تاريخ الماء وأساليب الري والتوزيع بمراكش"، **دعوة الحق**، العدد: ٢٦٥ شوال-ذو القعدة ١٤٠٧هـ/ يونيو-يوليو ١٩٨٧ (ص ٧٨).

(١٠) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي): **وصف إفريقيا**. تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، جزءان ١٩٨٢، ج ٢ (ص ١٢٦).

(١١) ابن خلدون (عبد الرحمن): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨١، الجزء السابع (ص ٧٧- ٧٨).

(١٢) حافظي (علوي حسن): **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٧. (ص ٨٠).

(١٣) الوزان محمد بن الحسن الفاسي، المصدر السابق (ص ١٢٧).

(١٤) عبد اللوي علوي (أحمد): **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث**، المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان ١٩٩٦. الجزء ١ (ص ١٠٢).

(١٥) البكري (أبو عبيد الله): المصدر السابق (ص ٨٣٦).

(١٦) الإدريسي (أبو عبد الله بن محمد بن إدريس): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، حققه دوزي ودي كوخ بعنوان" :**المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**"، ليدن، مطبعة بريل 1864 (ص ٤٦).

(١٧) العمري (ابن فضل الله أحمد بن يحيى، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**): تحقيق مصطفى أبو ضيف. الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٨ (ص ٢٥٠)

(١٨) المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر): **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دمشق، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1980، (ص ٢٣١).

(١٩) مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**. تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء، دار النشر المغربية ١٩٨٥ (ص ٢٠٠-٢٠١).

(٢٠) ابن الخطيب (لسان الدين محمد السلماني): **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة. المحمدية، مطبعة فضالة، ١٩٧٦ (ص ١٨١).

(٢١) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي الفزازي): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق محمد قنديل البقلي، القاهرة، المؤسسة المصرية، (ص ١٦٤).

(٢٢) ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي): **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي. الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث ١٩٩٧ المجلد الرابع (ص ٢٣٩).

(٢٣) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي): المصدر السابق (ص ١٢٦).

(٢٤) الناصري (أبو العباس أحمد خالد): **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، الجز الثالث ١٩٥٤، ص: ١٢٠.

(٢٥) المدغري (أحمد ابن عبد العزيز ابن الحسن): **الأنوار الحسنية**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، ١٩٦٦، ص: ٩٢ الهامش رقم: ١.

(26) Jacques-Meunié (Djinn): **Le Maroc saharien des Origines à 1670, avec 55 documents photographiques**. Paris, édition C. Klincksieck 1982. (p 284)